



الفصل الخامس:

الاستعمار الأوروبي و المقاومة العربية



١- ضعف الدولة العثمانية والاحتلال الأوروبي للمغرب العربي ومصر:

بدأت الدولة العثمانية بالضعف و التدهور بعد أن توقفت فتوحاتها، ويمكن القول إن مظاهر الضعف هذه قد ظهرت منذ أواخر القرن الثامن عشر، فالدولة العثمانية لم تكن دولة حضارية بل كانت دولة عسكرية بدأت مشاكلها مع توقف توسعها، فأصبح جيش الإنكشارية العثماني و بالاً على الدولة بعد أن كان أدواتها في تحقيق الانتصارات والفتوحات. فلم يُبقَ لهؤلاء الجنود والضباط عمل يقومون به وأصبحت رواتبهم محدودة ومتقطعة، وبدؤوا بإثارة المشاكل داخل الدولة إلى الدرجة التي اضطر بها السلطان محمود الثاني إلى القضاء على جيش الإنكشارية وإبادته بعد أن أصبحوا عقبة في طريق الإصلاح لدرجة أنهم تحالفوا مع رجال الدين الأتراك الذين اعتبروا أن كل ما يصلهم من أوروبا من تطور و تحديث هو ضد الإسلام. ومع ذلك فإن محاولات السلاطين العثمانيين - الذين أعقبوا السلطان سليمان القانوني - القيام بإصلاحات لم تُجدِ نفعاً أمام التطور الهائل الذي شهدته أوروبا في العصور الحديثة وفي قيام الثورة الصناعية التي جعلت من الأوروبيين في أواخر القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر قوة لم تكن الدولة العثمانية بأساليبها العسكرية القديمة، وأفكارها البالية تستطيع الوقوف أمامها اقتصادياً وعسكرياً، وعندما حاول بعض السلاطين القيام بالإصلاحات فإن تأثير هذه الإصلاحات كان محدوداً، وجاء متأخراً جداً. فقد أصبحت الدولة العثمانية تسمى من قبل الأوروبيين (الرجل المريض) وظهرت قضية (المسألة الشرقية) وهي في الحقيقة مسألة غربية لأن الأوروبيين كانوا يفكرون بالطريقة التي يقتسمون بها الدولة



العثمانية ويعيدون السيطرة على البلقان و يحتلون الوطن العربي للحصول على ثرواته ولجعله أسواقاً لمنتجاتهم ومورداً للمواد الغذائية التي تحتاجها معاملهم وثورتهم الصناعية. كذلك أرادت بريطانيا تأمين طرق مواصلاتها إلى الشرق الأقصى و الهند عن طريق البحر الأحمر و الخليج العربي ونهري دجلة والفرات. كما أرادت روسيا القيصرية إيجاد منفذ لها من البحر الأسود إلى المياه الدافئة في البحر المتوسط، وذلك بالاستيلاء على الآستانه ومضيقي البسفور والدردنيل، وأن يكون لها نفوذ على البلقان ذوي الأصول السلافية التي ينحدر منها الروس. أما فرنسا فقد أرادت رعاية مصالحها في بلاد الشام و أقطار المغرب العربي.

وهكذا بدأت دول أوروبا حملاتها العسكرية لاحتلال الوطن العربي. ففي عام (١٨٣٠م) احتلت فرنسا الجزائر وفي عام (١٨٨١م) احتلت تونس، وفي عام (١٨٨٢م) احتلت بريطانيا مصر ثم السودان عام (١٨٨٩م)، وفي عام (١٩١١م) احتلت إيطاليا ليبيا، وفي عام (١٩١٢م) أعلنت الحماية الفرنسية على المغرب الأقصى (مراكش) كما احتلت إسبانيا أجزاء منها. وبذلك خرجت الجزائر و تونس وليبيا ومصر و السودان من سيطرة الدولة العثمانية. ولم يبقَ تحت سيطرتها المباشرة سوى العراق و بلاد الشام و الجزيرة العربية و التي احتلها البريطانيون والفرنسيون خلال الحرب العالمية الأولى التي شهدت سقوط الدولة العثمانية وزوالها.

٢- الاحتلال الفرنسي و المقاومة العربية في الجزائر:

كانت فرنسا تطمح في استعمار الجزائر للسيطرة على ثرواتها ولتصريف بضائعها، وللتخلص من الديون التي كانت الجزائر قد أقرضتها لفرنسا، وكذلك لنشر الديانة المسيحية في أفريقيا. وقد سنحت الفرصة للفرنسيين باستخدام (حادثة المروحة) سبباً مباشراً لغزو الجزائر في حزيران عام (١٨٣٠م). والمقصود بحادثة المروحة: هي أن قنصل فرنسا في الجزائر قد حضر لدى الداى حسين حاكم الجزائر لتقديم التهاني في إحدى المناسبات. فاستفسر منه الداى حسين عن سبب تأخر الحكومة الفرنسية عن دفع ديونها للجزائر، فرد القنصل الفرنسي بطريقة غير مؤدبة وبغطرسة، فأشار عليه الداى بمروحته ليغادر المكان فلمست المروحة



القنصل، فاعتبرت فرنسا هذه الحادثة التي وقعت عام (١٨٢٧م) تجاوزاً من قبل حاكم الجزائر على كرامة فرنسا و حكومتها، فكانت هذه الحادثة السبب المباشر الذي افتعلته فرنسا لاحتلال الجزائر.

أعلنت فرنسا الحرب على الجزائر في حزيران عام (١٨٢٧م) وفرضت عليها حصاراً بحرياً لمدة ثلاث سنوات، ثم قام بعدها الأسطول الفرنسي بالاستيلاء على مدينتي الجزائر في تموز عام (١٨٣٠م) بعد أن استولوا على ميناء (سيدي فرج) في حزيران من العام نفسه. واستسلم داي الجزائر بمعاودة وقعها مع القائد الفرنسي الجنرال بومونت، وقد تعهدت فرنسا بموجب هذه المعاهدة بالمحافظة على أوضاع الجزائر إلا أنها نقضتها قبل أن يجف مدادها.

ففي اليوم التالي دخل الجنود الفرنسيون (القصة) و أنزلوا الأعلام العثمانية، ورفعوا العلم الفرنسي ثم دخلوا مدينة الجزائر و هجموا على المواطنين بوحشية، وأشاعوا السلب، والنهب، والاعتداء على الحرمات وقتل المواطنين بالجملة، وحرقوا القرى والمزارع.

ثم توغلت القوات الفرنسية المحتلة داخل الأراضي الجزائرية فاحتلت مدينة بليدة، لكنها وجدت مقاومة في مدن قسنطينة وعنابة و بجاية والمدية. وتمكنت المقاومة في وهران و قسنطينة من محاصرة القوات الفرنسية مما أضطر الحكومة الفرنسية إلى إرسال قوات كبيرة لفك الحصار، فدخل الفرنسيون مدينتي وهران بينما رفضت قسنطينة الاستسلام، واستمرت تقاوم الفرنسيين سبع سنوات حيث ألحق الجزائريون بالفرنسيين هزائم كبيرة و استطاعوا طردهم من مدينة عنابة. وتكررت هجمات الفرنسيين على قسنطينة، وكان آخرها هجوم عام (١٨٣٧م) حيث قاومتهم المدينة مقاومة باسلة ودارت المعارك من بيت إلى بيت ولم يتمكن الفرنسيون من دخول المدينة إلا بعد أن تكبدوا آلاف القتلى وبينهم القائد الفرنسي للحملة كما قدمت المدينة آلاف الشهداء من أبنائها المقاتلين وكان ذلك عام (١٨٣٨م).

أبرزت المقاومة الجزائرية خلال الفترة (١٨٣٠م) وحتى قيام الحرب العالمية الأولى وخلالها قادة جزائريين كان في مقدمتهم عبد القادر الجزائري الذي ظهر زعيماً وقائداً للمقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي في معركتي (خنق البطاح)

الأولى والثانية، فتمت مبايعته أميراً في ٢٧ تشرين الثاني (١٨٣٢م) من قبل أهل (معسكر) و (غريس) الغربي و الشرقي وما جاورهما، ثم وقعت البيعة العامة له في شباط (١٨٣٣م)، ولقب بـ (ناصر الدين). وقد قام الأمير عبد القادر الجزائري بتشكيل حكومة، و تأسيس جيش حديث مكون من المشاة والخيالة، والمدفعية، ونظم القضاء و اهتم بالثقافة، وشجّع طلاب العلم والعلماء، وأنشأ المكتبات، وأظهر عناية بالصحة العامة. من جانب آخر أنشأ الأمير عبد القادر الجزائري مجلس شورى منتخباً يعاونه في حكم البلاد و دراسة المظالم.

إن هذه الأسس التي وضعها الأمير عبد القادر الجزائري لإنشاء دولة جزائرية حديثة قد كانت جزءاً من استراتيجيته في مقاومة الاحتلال الفرنسي، حيث استمر في قتال الفرنسيين و مقاومتهم وشن الغارات عليهم، وكانت له معارك عديدة وشديدة معهم لتحرير مدينتي (وهران ومستغانم)، ولكنه لم يتمكن من الانتصار على الفرنسيين فاضطر إلى عقد معاهدة عام (١٨٣٤م) معهم لكي يضمن عدم توسعهم داخل البلاد. إلا أن الفرنسيين لم يلتزموا بوقف القتال، فهاجموا تلمسان و قامت الحرب من جديد بين الفرنسيين و عبد القادر الجزائري، فاضطّر الفرنسيون إلى عقد معاهدة جديدة معه هي معاهدة (تافنا) التي حددت فيها المواقع التي تسيطر عليها القوات الفرنسية وهي: مدن الجزائر ووهران و البليدة و القليعة و ما حولها، وبالمقابل اعترفت المعاهدة بولاية الأمير عبد القادر الجزائري على سائر بقية الجزائر، وضمنت المعاهدة للعرب المسلمين في المناطق الواقعة تحت الاحتلال الفرنسي ممارسة ديانتهم بحرية تامة. ومع ذلك فإن الفرنسيين لم يلتزموا بنصوص هذه المعاهدة أيضاً؛ لأنهم أصلاً كانوا يريدون من وقف القتال مع عبد القادر الجزائري فرصة لتعزيز قواتهم من أجل السيطرة على كامل الجزائر، لذلك اندلعت المقاومة من جديد عام (١٨٣٩م) و استمرت بقيادة الأمير عبد القادر الجزائري حتى عام (١٨٤٧م). وخلال السنوات (١٨٣٩. ١٨٤٠م) تمكنت المقاومة الجزائرية من تحقيق الانتصارات على القوات الفرنسية، مما اضطر الفرنسيين إلى اللجوء لسياسة (الأرض المحروقة) أي استخدام البطش بالمدينين وهدم بيوتهم و حرقها و حرق مزارعهم. ففي عام (١٨٤١م) أصبح الجنرال (بيجو) حاكماً عاماً وقائداً عسكرياً في الجزائر، فاستقدم قوات فرنسية و معدات كبيرة، وأستخدم سياسة



تحصين المدن و الانطلاق منها للهجوم على الأخرى و تحصين الحدود لمنع وصول المساعدات إلى المقاومة، وإحراق المحاصيل الزراعية لمنع الناس من الحصول على الأقوات و كذلك المقاومة، ووصل به الحد إلى أسر النساء و الأطفال و الشيوخ و الاعتداء على المحرمات و إرهاب الناس، واستخدم (بيجو) أيضاً أسلوب التجسس و إثارة الفتن بين الجزائريين، مما أضطر الأمير عبد القادر الجزائري إلى إتباع سياسة جديدة في إقامة عاصمة متنقلة له يقيمها في المواقع الصالحة للمقاومة، فكان قتاله للفرنسيين على مدى خمسة عشر عاماً مثلاً للبطولة و الشهامة و الفداء في سبيل الوطن و العروبة والإسلام.

إن الوحشية الفرنسية و سياسة الأرض المحروقة، قد أضعفت المقاومة الجزائرية، فاضطر الأمير عبد القادر الجزائري إلى طلب العون من العثمانيين إلا أن هذه الدولة قد أصبحت ضعيفة تتدخل في شؤونها الدول الأوربية الجديدة والقوية. كما أن الضغط الفرنسي على سلطان المغرب الأقصى منعه من إرسال المعونة إلى الأمير عبد القادر الجزائري، إضافةً إلى تحصين الفرنسيين لحدود الجزائر الشرقية والغربية لمنع أية مساعدات عربية من المقاومة.

إن هذه العوامل جميعها العسكرية والسياسية و الاقتصادية و الاجتماعية قد جعلت الأمير عبد القادر الجزائري، يقع أسيراً بيد القوات الفرنسية، حيث نفى إلى فرنسا عام (١٨٤٧م) و لبث فيها حتى عام (١٨٥٣م) حينما أطلق نابليون الثالث سراحه فلجأ إلى تركيا ومنها سافر إلى دمشق عام (١٨٥٥م) و توفي فيها عام (١٨٨٣م)، وفي عام (١٩٦٦م) تم نقل رفاته من دمشق ليدفن في أرض موطنه الجزائر.

إن نهاية الأمير عبد القادر الجزائري لا تعني توقف المقاومة الجزائرية، فخلال السنوات (١٨٤٨.١٨٥٠م) نشبت ثورات عديدة مع عدم توقف المقاومة التي قابلها الاحتلال الفرنسي بأساليب وحشية. ومع ذلك بقيت العديد من المناطق الجزائرية مغلقة أمام المحتل، ولم تستطع فرنسا فرض السيطرة التامة على الجزائر كلها إلا بعد القضاء على ثورة المقراني عام (١٨٧١م). علماً أن الفرنسيين لم يتمكنوا من احتلال الصحراء إلا في مطلع القرن العشرين.

لقد قسمت الدكتورة زاهية قدورة في كتابها «تاريخ العرب الحديث»، المقاومة الجزائرية التي أعقبت مقاومة الأمير عبد القادر الجزائري على النحو التالي:

١. ثورة أولاد سيدي الشيخ، وثورة الأوراس و الزبيان و زواغه، شمالي قسنطينه و جبال زواوة في الأعوام (١٨٤٨. ١٨٥٠م).
٢. ثورة القبائل عام (١٨٥١م)
٣. ثورة واحات الجنوب بقيادة محمد بن عبد الله عام (١٨٥٢م)
٤. ثورة جبال البابور عام (١٨٥٦م)
٥. ثورة لالا فاطمة في جبال القبائل عام (١٨٥٧م)
٦. ثورة أوراس عام (١٨٥٨م)
٧. ثورة الشعبانية عام (١٨٦١م)
٨. ثورة اولاد سيدي الشيخ التي امتدت من جنوب وهران إلى أن وصلت إلى مقاطعة قسنطينه عام (١٨٦٤م)
٩. ثورة محمد المقراني عام (١٨٧١م)

كانت ثورة المقراني ضد الاحتلال الفرنسي من أكبر هذه الثورات بعد ثورة الأمير عبد القادر الجزائري، فقد تحولت إلى مقاومة شعبية واسعة النطاق امتدت على مدى عام (١٨٧١م). وكانت هناك عوامل ساعدت على اتساع هذه الثورة، فقد كانت تمثل تحدياً للسياسة الاستيطانية العنصرية الفرنسية في الجزائر، وشجع على قيامها هزيمة فرنسا أمام ألمانيا في هذا العام، تلك الحرب التي أجبرَ فيها الفرنسيون شباب الجزائر على التجنيد و القتال معهم في فرنسا ضد ألمانيا، يضاف إلى هذا كله أن الفرنسيين المحتلين منحوا اليهود الجزائريين الجنسية الفرنسية ليصبحوا قوة إلى جانب الفرنسيين المحتلين أمام مقاومة المجتمع العربي الإسلامي الجزائري للاحتلال الاستيطاني الفرنسي.

امتدت المقاومة و الثورة على جميع الأراضي الجزائرية عام (١٨٧١م) عدا وهران، وقد استشهد قائد الثورة محمد المقراني بعد شهرين من بدء المقاومة فأستلم القيادة أخوه بوزمراك المقراني الذي قادها على مدى عام كامل إلى أن تمكنت القوات الفرنسية المحتلة من القضاء على الثورة في شهر كانون الثاني (١٨٧٢م).



تعتبر مقاومة المقراني وثورته آخر ثورة شاملة في الجزائر قبل قيام الحرب العالمية الأولى، إلا أن هذا لا يعني أنه لم تعقبها ثورات أخرى محدودة النطاق مثل ثورة عام (١٩١٦م) ضد تجنيد الجزائريين للاشتراك مع القوات الفرنسية في الحرب العالمية الأولى. ويمكن القول: إن المقاومة الجزائرية المسلحة، قد توقفت بقيام الحرب العالمية الأولى، لتبدأ بعد الحرب المقاومة السياسية التي قادت إلى تفجير الثورة الجزائرية الكبرى عام (١٩٥٤م).

٣-الاحتلال الفرنسي و المقاومة العربية في تونس:

قام باي تونس أحمد بتطبيق (التنظيمات) في تونس بناء على طلب من السلطان محمود الثاني، الذي حاول قيادة حركة الإصلاح في الدولة نتيجة تخلفها عن أوروبا ولأن الأوربيين بدؤوا يتدخلون في شؤون الدولة العثمانية، و يفرضون عليها آراءهم، لكن هذه الإصلاحات التي تمثلت في إنشاء مدرسة حربية يُدرس فيها المعلمون الفرنسيون وتكوين جيش قوامه ٢٥ ألف عسكري تسنده الصناعة العسكرية (مصانع الذخيرة و بناء الأسطول) و كذلك التقرب من فرنسا، قد أدى كل هذا إلى وقوع البلاد في أزمة مالية، خصوصاً وأن الفساد الإداري و المالي قد تصاعد مع هذه الإصلاحات كما ازداد النفوذ الفرنسي في البلاد.

لقد حاول بايات تونس خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر إصلاح أحوال البلاد، واستعانوا بالمصلح خير الدين التونسي الذي تقلد عدة مناصب، منها تمثيله لبلاده في فرنسا لمدة ثلاث سنوات؛ لإنهاء مشكلة الديون و تقلده بعد ذلك منصب وزير الحربية، كما أصبح رئيساً للمجلس الاستشاري. لكن المجلس لم يحقق أهدافه مما دفع خير الدين التونسي إلى الاستقالة. وباستقالته زاد الفساد ونهب أموال الدولة إلى الدرجة التي جعلتها تفرض الضرائب القاسية على المواطنين و بأقسى الأساليب. فتراكمت ديون تونس الخارجية مما أدى إلى فرض الرقابة المالية الأجنبية عليها و بأكثرية فرنسية في لجنة متخصصة بدأت تتدخل في شؤون البلاد. و تصاعد التنافس الفرنسي الإيطالي لاحتلال تونس والسيطرة عليها، وقد قويت أطماع إيطاليا بعد هزيمة فرنسا أمام ألمانيا عام (١٨٧٠م)، كما أن بسمارك مستشار ألمانيا المنتصرة منح فرنسا في مؤتمر برلين المنعقد عام (١٨٧٨م)

حرية التصرف لاحتلال تونس ولم تمنع بريطانيا بينما سككت إيطاليا لأنها لم تكن دولة عظمى .

أعدت فرنسا الخطط لغزو تونس من الجزائر التي كانت تحتلها، ووجدت حجتها فيما ادّعتُه من إغارة قبائل خمير التونسية على حدود الجزائر ولم يكن هذا صحيحاً، بل عذراً لحشد قواتها واختراقها للأراضي التونسية. كما حاصر الأسطول الفرنسي مدينة بنزرت وأنزل رجاله في برها . وفي مايس (١٨٨١م) احتلت القوات الفرنسية بقيادة الجنرال بريار العاصمة تونس، وتم توقيع (معاهدة باردو) التي أعلنت فرنسا أنها معاهدة صداقة وحسن جوار لكنها في الحقيقة قامت باحتلال البلاد عسكرياً .

إن الاحتلال الفرنسي لتونس قاد إلى ظهور المقاومة المسلحة بقيادة علي بن خليفة التونسي، ولكن الفرنسيين تمكنوا من القضاء عليها بسهولة؛ لأنهم كانوا قد ثبتوا أوضاعهم في البلاد بعد أن خدعوا الشعب التونسي بأنهم جاءوا حلفاء وليسوا مستعمرين . وقد أسفرت فرنسا عن وجهها الاستعماري في تونس عندما فرضت على البلاد عام (١٨٨٣م) معاهدة (المرسى الكبير) التي أعلنت فيها الحماية الفرنسية على تونس، و إدارتها للبلاد بشكل مباشر مع إبقاء منصب الباي مثل آلة بأيديهم . وقد استمر الاحتلال الفرنسي لتونس إلى إعلان استقلالها عام (١٩٥٦م) .

٤-الاحتلال البريطاني والمقاومة العربية في مصر:

احتلت بريطانيا مصر عام (١٨٨٢م) و أخرجتها عن سلطة الدولة العثمانية تماماً، إلا أن هذا لا يعني أن مصر لم تتعرض إلى الاحتلال الأوروبي قبل هذا التاريخ، فقد سبق وأن غزا نابليون بونابرت مصرَ عام (١٧٩٨م) ثم عادت إلى السيادة العثمانية الاسمية بعد انسحابه منها . ولكي تكون الصورة واضحة لابد لنا من العودة إلى تلك الأحداث التي سبقت احتلال بريطانيا لمصر عام (١٨٨٢م) .

قناة السويس والديون المصرية:

توفي محمد علي الكبير عام (١٨٤٩م)، وقد حاول وريثه الاستمرار في منهجه النهضوي، لكنهم كانوا مبذرين ومسرفين فاقترضوا واستدانوا من الدول الأجنبية مما فتح باب التدخل في شؤون مصر الداخلية، وخصوصاً بريطانيا وفرنسا . وفي



عهد الخديوي محمد سعيد بدأ المصريون بتنفيذ مشروع شق قناة السويس، حينما كُلف الخديوي المهندس و السياسي الفرنسي فرديناند دي ليسيبس بدراسة المشروع، ورغم معارضة بريطانيا خوفاً على مصالحها، فقد تم توقيع اتفاق بين الحكومتين المصرية والفرنسية عام (١٨٥٦م) تم بموجبه منح امتياز لشركة فرنسية لحفر القناة وأن تكون مدة الاستفادة الفرنسية من المشروع تسعة وتسعين عاماً.

بدأ العمل في شق قناة السويس يوم ٢٥ نيسان (١٨٥٩م) واستمر إلى ١٧ تشرين الأول عام (١٨٦٩م)، أي عشر سنوات، حيث تم إنجازها في عهد الخديوي إسماعيل، الذي أسرف في الصرف على القناة، وتحملت الخزينة المصرية ملايين الجنيهات تكاليف عامة لحفرها، كما استغل فيها آلاف العمال المصريين توفي منهم في أثناء العمل ما يقارب عشرين ألف عامل مصري بسبب قسوة العمل، وكانت الشركة الفرنسية تدفع لهم أجوراً زهيدة حتى إن العمل كان أقرب ما يكون إلى السخرة.

ولم يكتفي الخديوي إسماعيل بإرهاق الخزينة من أجل حفرة القناة، بل إنه شيد القصور الفخمة، ووضع برنامجاً كبيراً كلف مصر أموالاً طائلة دعا إليه الأباطرة والملوك، ومنهم الإمبراطورة أوجيني زوجة نابليون الثالث وإمبراطور النمسا وولي عهد ألمانيا وولي عهد إيطاليا، وقد استمرت المهرجانات والاحتفالات لعدة أيام شهدت فيها مصر مظاهر البذخ والإسراف.

أصاب الخزينة المصرية عجز كبير اضطر الخديوي إسماعيل إلى رهن الأسهم المصرية في شركة القناة لدى الفرنسيين، إلا أن الفرنسيين لم يتمكنوا من إتمام الصفقة فسارع البريطانيون إلى شراء حصة مصر في قناة السويس (وليس مجرد رهن) وكان ذلك عام (١٨٧٥م)، فكانت البداية لتدخل بريطانيا في شؤون مصر الداخلية ومن ثم احتلالها عام (١٨٨٢م).

الاحتلال وثورة أحمد عرابي:

أدى ثقل الديون المصرية إلى تدخل الدول الكبرى في شؤونها الداخلية فقد فرضت كلٌّ من بريطانيا وفرنسا وزيرين منهما في الوزارة المصرية من أجل المراقبة الثنائية على مصر وديونها، كما فرضوا مصرياً أرمنياً عرف بولائه للأجانب ليصبح

رئيساً للوزراء ليساعدهم في التغلغل داخل مصر وليكون سنداً للتجار الأجانب فيها. فأطلق الشعب العربي في مصر على هذه الوزارة اسم (الوزارة الأوربية) التي أغدقت الأموال على الأجانب وحاولت إضعاف الجيش، وسرحت العديد من ضباطه، وتوقفت عن دفع مرتباتهم فتظاهر الضباط، وقاموا باحتجاز بعض أعضاء الوزارة، فتدخل الخديوي إسماعيل وانتهى الأمر باستقالة الوزارة في آذار (١٨٧٩م).

أثار تغلب الجيش وضباطه على إرادة الخديوي إسماعيل و الوزارة الأوربية حفيظة البريطانيين والفرنسيين و الأجانب عموماً، فسعوا لدى السلطان العثماني الضعيف (الرجل المريض) إلى خلعه و تعيين الخديوي توفيق محله في السنة نفسها. وقد عرف الخديوي الجديد بإمكاناته المحدودة وبضعفه أمام الأجانب والقناصل.

إن استمرار ضعف سلطة الخديوي قد دفع الشعب المصري و قاداته إلى المطالبة بتشريع دستور للبلاد الذي تنبأه رئيس الوزراء الجديد محمد شريف باشا، إلا أن البريطانيين و الفرنسيين منعوا الخديوي توفيق من توقيع مشروع الدستور. وجاؤوا برئيس وزراء موالٍ لهم وبوزير حرية شركسي عمل على إضعاف الجيش وإرغام الضباط العرب على الخروج منه. وأمام هذه السياسة الأجنبية المناهضة لمصالح البلاد أصرَّ الشعب و قواه الوطنية على إقامة حياة نيابية في مصر، فحاول القناصل الأجانب وأصحاب المصالح مُنَعِ التصويت عليها. فثار الجيش و الشعب بزعامة قائد وطني هو أحمد عرابي رافعاً شعار (مصر للمصريين) وكان ذلك عام (١٨٨١م)، ولما كان أحمد عرابي أعلى الضباط رتبة وأكثرهم حماسة و أقدرهم على القيادة فقد أعلن الجميع ولاءهم له. فأقام حكومة وطنية و سن دستوراً وطنياً وأقام حياة نيابية، وتغلب على المؤامرات التي حاكتها ضده القوى الأجنبية والخديوي توفيق. وفي ١١ حزيران عام (١٨٨٢م) عقدت القوى الأجنبية مؤتمراً في السفارة الإيطالية باسطنبول وكانت مقررات هذا المؤتمر تمثل تدخلاً سافراً بشؤون مصر فطالبت القوى الوطنية باستقالة الخديوي توفيق الذي كان ضعيفاً ومنصاعاً للقناصل الأجانب.



التجأ الخديوي توفيق إلى حلفائه البريطانيين في الإسكندرية يوم ١٣ تموز عام (١٨٨٢م) حيث أصبح على مقربة من أسطولهم الذي كان راسياً في مينائها ودبر مذبحة الإسكندرية بالاتفاق مع الإنكليز حيث أشعلوا الفتنة بين سكان البلاد من المصريين وبين الممالطين المقيمين في الإسكندرية يساندتهم الأجانب الذين كانوا مسلحين تسليحاً جيداً، فقتلوا عدداً كبيراً من المصريين العزل.

اتخذ البريطانيون من مذبحة الإسكندرية حجة لاحتلال مصر فهاجموا الإسكندرية ووجدوا مقاومة بأسلة وعنيفة من أهلها ولم يتمكنوا من دخولها، فتحولوا إلى قناة السويس تحت جنح الظلام من ميناء بورسعيد. ومن منطقة القناة بدأت عملياتهم العسكرية. وكان أحمد عرابي قد قرر ردم القناة لمنع الأسطول البريطاني من الدخول فيها، لكن مهندس القناة الفرنسي دي ليسبس خدعه بأن أكد له أن الإنكليز لن يجرؤوا على الدخول إلى القناة؛ لأن الفرنسيين سيتدخلون.

قاوم الشعب العربي في الإسكندرية القوات البريطانية الغازية بكل بسالة وشجاعة، وقصف الأسطول البريطاني الإسكندرية، ووقعت معركة (التل الكبير) التي تمكن فيها البريطانيون من هزيمة المصريين فاحتلوا الإسكندرية فكانت البداية لاحتلال مصر عام (١٨٨٢م).

أما عن أحمد عرابي، والضباط الوطنيين فقد صدرت عليهم أحكام الإعدام ثم استبدلت بالنفي إلى جزيرة سيلان. وفي عام (١٨٩٢م) توفي الخديوي توفيق وخلفه ابنه عباس حلمي الذي شهد عهده حركة وطنية ضد الاحتلال البريطاني قادها مصطفى كامل مؤسس أول حزب سياسي في مصر هو الحزب الوطني عام (١٩٠٧م)، ثم أعقبه في قيادة الحزب بعد وفاته محمد فريد في كفاحه ضد الاستعمار البريطاني و حليفهم الخديوي عباس حلمي حتى قيام الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م).

أما عن السودان فقد احتله البريطانيون عام (١٨٩٩م) بعد القضاء على الثورة المهدية (١٨٨٣-١٨٩٩م)، وأقيم الحكم الثنائي بين مصر والسودان والذي استمر إلى عام (١٩٥٣م) حينما قررت الثورة المصرية وقائدها جمال عبد الناصر ترك خيار تقرير المصير للسودان، فأعلن استقلال السودان التام عام (١٩٥٦م).

٥-احتلال ليبيا و المقاومة العربية:

كانت ليبيا قد تخلصت من حكم فرسان القديس يوحنا عندما استنجدت بالدولة العثمانية التي طردتهم من ليبيا عام (١٥٥٦م)، وبعد حوالي ربع قرن من السيطرة العثمانية التي اتصفت بالفساد الإداري برزت إلى السلطة الأسرة القرمانلية التي حكمت منذ عام (١٧١١-١٨٣٥م) حكماً مستقلاً عن الدولة العثمانية التي أصبحت لها سلطة اسمية على ليبيا. وعندما بدأت أوروبا تهاجم ليبيا مرة ثانية بحجة مكافحة القرصنة عاد العثمانيون ليسيّطروا مرة أخرى على ليبيا، وكان ذلك عام (١٨٣٥م) و قد استمر حكمهم المباشر عليها حتى الغزو الإيطالي عام (١٩١١م).

أسباب الاحتلال:

لقد تمسك الليبيون بالحكم العثماني في هذه الفترة؛ لأن الدولة العثمانية كانت تمثل في نظرهم قوة إسلامية يمكن الاعتماد عليها في مواجهة الغزوات الأوروبية بعد أن سيطر الفرنسيون على الجزائر عام (١٨٣٠م)، و على تونس عام (١٨٨٢م) وسيطر البريطانيون على مصر عام (١٨٨٢م)، وهي دولة محيطة بليبيا التي أصبحت مهددة.

إن التمسك بالدولة العثمانية لم ينقذ ليبيا من الأطماع الأوروبية التي تريد السيطرة على جميع الوطن العربي بعد أن ضعفت الدولة العثمانية، التي أطلقوا عليها اسم: (الرجل المريض) الذي وضع الأوروبيون الخطط لتقاسم تركته وعلى رأسهم بريطانيا و فرنسا، وكذلك إيطاليا التي كانت تتطلع لاحتلال ليبيا.

فبدأت بإرسال البعثات وإنشاء معاهد للتعليم، وتنشيط التجارة مع ليبيا. وقد تصاعد هذا التوجه الإيطالي بعد قيام الوحدة الإيطالية عام (١٨٧٠م) حيث بدأت إيطاليا تتطلع للحصول على المواد الأولية و الأسواق التجارية لمنتجاتها، فاحتلت ارتيريا عام (١٨٨٥م) وساحل البحر الأحمر الإفريقي، ثم دخلت ليبيا ثقافياً وصحياً بإنشاء المدارس والمستشفيات الإيطالية، وأنشأت أيضاً فرعاً لبنك روما في طرابلس وبرقة عام (١٩٠٥م) ومارست إيطاليا عمليات الرهن والتسليف بطرق جائرة، الهدف منها امتلاك الأراضي الزراعية في ليبيا غصباً بعد إغراق أصحابها بالديون. ولكي تهين إيطاليا الرأي العام الأوروبي لتقبل أطماعها في ليبيا فقد بدأت تهاجم الأتراك العثمانيين بحجة أنهم يضطهدون الليبيين.



وعندما تهيأت الفرصة لاحتلال ليبيا عسكرياً، خصوصاً بعد احتلال فرنسا وبريطانيا للجزائر وتونس ومصر، أرسلت الحكومة الإيطالية بعثة علمية أثرية إلى طرابلس عام (١٩١٠م) ظاهرها التنقيب عن الفوسفات والآثار و باطنها إعداد الخرائط اللازمة للعمليات العسكرية الإيطالية المقبلة ولم تكن الدولة العثمانية قادرةً على مواجهة هذه المخططات، بل على العكس فقد قامت وزارة حقي باشا في اسطنبول بسحب الجنود الأتراك الموجودين في ليبيا من أجل إخماد الثورة في اليمن. كما أنها لم تستجب لمطالب الليبيين بالتجنيد و التهيؤ للدفاع عن الوطن بعد أن انكشفت الأهداف و الخطط الاستعمارية الإيطالية في ليبيا، و التي تلخص في الآتي:

١. الحصول على مستعمرة قريبة جغرافياً من إيطاليا من أجل تخفيف الضغط السكاني عن إيطاليا وذلك بإنشاء مستوطنات إيطالية فيها.
٢. استثمار الأراضي الزراعية من أجل تغطية احتياجات إيطاليا عن المواد الغذائية و الحصول على مواد أولية.
٣. إيجاد أسواق جديدة للمنتجات الإيطالية.

الاحتلال والمقاومة

عندما أصبحت الخطط الإيطالية جاهزة لاحتلال ليبيا، وجهت الحكومة الإيطالية إنذاراً إلى الدولة العثمانية وبشكل مفاجئ وغير معلن سابقاً، اتهمتها فيه بإتباع سياسة عدوانية ضد رعاياها الإيطاليين في ليبيا، ومقاومتها لنشاطهم في طرابلس وبنغازي، واضطهادها لهم للدرجة التي لا تنفع فيها المفاوضات وعليه قررت الحكومة الإيطالية اللجوء إلى القوة العسكرية، و ذلك باحتلال ليبيا حفاظاً على شرف إيطاليا ومصالحها، وطلبت من الدولة العثمانية تسهيل عملية الاحتلال والرد على إنذارها خلال أربع وعشرين ساعة.

حاولت الدولة العثمانية بردها الضعيف على الإنذار التنصل من الاتهامات التي وردت فيه لكن الإيطاليين كانوا قد عقدوا العزم على احتلال ليبيا خصوصاً وأن الظروف الدولية كانت تنبئ بأن التسويات قد تؤدي إلى إعطاء ألمانيا قاعدة في طرابلس الغرب ليبيا وبناءً على ذلك وفي ٢٩ أيلول (١٩١١م) سلّم ممثل الحكومة الإيطالية في اسطنبول إلى الصدر الأعظم العثماني بياناً إيطاليا بإعلان الحرب.

وفي اليوم التالي ظهر الأسطول الإيطالي أمام طرابلس و حاصرها ثلاثة أيام تمكن بعدها الإيطاليون من احتلال المدينة. أما العرب و الأتراك فقد انسحبوا إلى مناطق خارج طرابلس وقاوموا القوات الإيطالية المتقدمة بعنف وشدة واستمرت المقاومة في عدة مدن ومناطق اشترك فيها السنوسيون وشيوخ الزوايا وعموم الليبيين الذين هرعوا للجهاد. وقد اشترك معهم قادة وشخصيات عربية معروفة مثل عزيز علي المصري وجعفر العسكري وياسين الهاشمي. ومع ذلك تمكن الإيطاليون من احتلال طبرق، ودرنه، وبنغازي، و الخمس؛ لامتلاكهم الأسلحة الحديثة. إلا أن المقاومة استمرت ضدهم.

ويمكن عموماً تقسيم المقاومة في ليبيا ضد الغزو و الاحتلال الإيطالي إلى ثلاثة عناصر و فصول و على النحو التالي:

١. الليبيون بقيادة السنوسيين وفي مقدمتهم الشريف أحمد السنوسي، فقد أعلنوا الجهاد دفاعاً عن الوطن. وقد استبسل الليبيون في جهادهم وكبدوا الطليان خسائر كبيرة ولم يتركوا لهم فرصة للراحة إلى درجه أن النفوذ الفعلي للإيطاليين بعد الحرب العالمية الأولى قد انحصر في الشريط الساحلي الليبي، وقد أعقب أحمد السنوسي في جهاده المجاهد عمر المختار الذي انضم إلى المقاومة منذ بدايتها.

٢. القوات العثمانية التي أوقعت خسائر كبيرة بالإيطاليين وكانت تنسق مع قوات المجاهدين العرب في معاركهم وجهادهم ضد الإيطاليين المحتلين.

٣. الدعم العربي: ففي هذه الفترة كانت العناصر القيادية للنهضة العربية قد برزت على الساحة في اسطنبول وبغداد ودمشق فتطوعوا للقتال إلى جانب الشعب العربي في ليبيا ضد الاحتلال الإيطالي، وكان في مقدمتهم الضابط عزيز علي المصري الذي أصبح قائداً على منطقة بنغازي. وتطوع معه العديد من الضباط العراقيين والسوريين واللبنانيين..... ولم تقتصر المساندة على الأفراد والمنظمات الشعبية بل أعلن بعض الحكام العرب مساندتهم للمقاومة الليبية مثل إمام اليمن. أما مصر فقد تحركت فيها المنظمات الشعبية، وتطوع الأطباء وجمعت التبرعات، وأنشأت المستشفيات الميدانية و أرسلت البعثات الطبية إلى ليبيا لمساندة مقاومة الشعب العربي فيها ضد الاستعمار الإيطالي.



لقد كانت المقاومة في ليبيا باسلة وشديدة و مستمرة ومن دون توقف، وبالمقابل ارتكب الإيطاليون المجازر الوحشية التي لم يستثنوا منها الأطفال والنساء و الشيوخ مثل مجزرة (المنشية) الواقعة شرقي مدينة طرابلس .

لم تتمكن الدولة العثمانية من الصمود، وهي الرجل المريض المنهك، فاضطرت إلى الدخول في مفاوضات مع إيطاليا في شهر تموز عام (١٩١٢م) وحتى شهر تشرين الأول من السنة نفسها . وعندما علم الزعماء العرب في ليبيا بالمفاوضات أوفد أحمد السنوسي المبعوثين إلى اسطنبول يُحذّره من مغبة عقد الصلح وما سيُلقّقه من عار بالدولة العثمانية لتسليمها الأراضي العربية المسلمة إلى الإيطاليين . ومع ذلك تم توقيع الصلح رسمياً وسحبت الدولة العثمانية قواتها وموظفيها من ليبيا، ولكنها اعترفت باستقلال الليبيين ودعمت المقاومة الليبية .

استمرت المقاومة بعد عقد معاهدة الصلح العثمانية الإيطالية بقيادة السنونيين (أحمد السنوسي)، و(سليمان الباروني)، وقد أضعفت الحرب العالمية الأولى إيطاليا خصوصاً في نهايتها مما اضطرهم إلى الموافقة على عقد اتفاق في ٢١ نيسان (١٩١٩م) اعترفت إيطاليا بالجمهورية الطرابلسية التي أقامها الزعماء العرب في طرابلس الغرب بليبيا في تشرين الأول عام (١٩١٨م). وبتطور الأحداث في إيطاليا بعد الحرب العالمية الأولى، و ظهور النظام الفاشي فيها بزعامة موسوليني الذي كان يحلم بإمبراطورية إيطالية، استمر الاحتلال الإيطالي لليبيا وتصاعدت المقاومة الليبية بقيادة خليفة الشريف أحمد وهو (محمد إدريس السنوسي) الذي وجد صعوبة في البقاء في ليبيا فغادرها إلى مصر لقيادة المقاومة من هناك وكان ذلك عام (١٩٢٣م). وقبل مغادرته برقة في ليبيا سلم القيادة العسكرية و السياسية إلى احد قادة المشهود لهم بالقيادة و الذكاء وهو السيد (عمر المختار). وقد سجلت المقاومة العربية في ليبيا بقيادة عمر المختار بطولات رائعة في وجه الاستعمار الإيطالي مما اضطرهم إلى عقد اتفاق (سيدي رحومة) عام (١٩٢٩م) ووقف القتال . ولم يكن هذا الاتفاق بالنسبة للإيطاليين سوى فرصة لكسب الوقت فاستأنفوا مهاجمتهم لمواقع المقاومة . وقد نجح الإيطاليون أخيراً في أسر المجاهد (عمر المختار) يوم ١١ أيلول (١٩٣١م) و أودع السجن أخيراً في بنغازي، وحوكم



محاكمة سورية ونفذ به حكم الإعدام شنقاً أمام جمهور غفير من أهالي مدينة برقة الذين أُجبروا على حضور عملية إعدام عمر المختار وكان ذلك في صباح ١٦ أيلول (١٩٣١م).

استمرت المقاومة بعد استشهاده عمر المختار ولكنها توقفت بعد أربعة أشهر لتبدأ من جديد خلال الحرب العالمية الثانية عام (١٩٤٠م) حين اتفق السنوسيون مع الإنكليز ضد الإيطاليين الذين كانوا في حرب معهم. وقد قدمت المقاومة تضحيات كبيرة انتهت بتخليص ليبيا من إيطاليا عام (١٩٤٣م)، لبدأ الاستعمار البريطاني الذي وعد بمنح الاستقلال لليبيا والذي أعقبه نضال سياسي ليبي إلى أن قررت الأمم المتحدة إعلان استقلال ليبيا دولة اتحادية تحت حكم الملك محمد إدريس السنوسي عام (١٩٥١م) وفي عام (١٩٦٤م) أعلنت ليبيا دولة موحدة ملكية وانضمت إلى الجامعة العربية عام (١٩٥٣م) وإلى هيئة الأمم المتحدة عام (١٩٥٥م).

وفي الأول من أيلول عام (١٩٦٩م) قامت الثورة على الحكم الملكي في ليبيا وأعلنت الجمهورية بقيادة العقيد معمر القذافي.

٦-احتلال المغرب الأقصى و المقاومة المغربية:

على الرغم من أن الدولة العثمانية لم تتمكن من فرض سيطرتها على المغرب الأقصى، إلا أنه لم ينج من الاحتلال الأوروبي، فهدف الأوروبيون لم يكن السيطرة على ممتلكات الدولة العثمانية فقط، وإنما احتلال الوطن العربي بأكمله... وكان المغرب الأقصى المعروف حالياً بالمملكة المغربية قد استمر في عطائه الحضاري بعد انفصاله عن الدولة العباسية عام (١٧٨٨م) عندما أسس إدريس الأول دولته المستقلة في المغرب الذي عرف خلفاؤه باسم (الأدارسة) و أعقبهم في الحكم المرابطون عام (١٠١٦م) وكان من العهود الزاهرة في تاريخ المغرب وقد تمكن الخليفة المرابطي (يوسف بن تاشفين) من ضم الأندلس إلى المغرب؛ لإنقاذها من حكم أمراء الطوائف بعد سقوط الدولة الأندلسية الثانية.

استولى على الحكم في المغرب بعد المرابطين أسرة الموحيدين عندما دخل زعيمهم عبد المؤمن بن علي إلى مدينة مراكش وأنهى حكمهم عام (١١٣٠م) وكان



لملوكتهم الفضل الأكبر في توحيد دول المغرب العربي حيث ضموا الجزائر وتونس وطرابلس والأندلس في دولة واحدة، واستمر حكمها حتى عام (١٢٦٨م) بمعنى: أن دولة الموحدين في المغرب العربي قد سقطت بعد سقوط دولة العباسيين في المشرق العربي بعشر سنوات فقط. ولذلك كان الانهيار السياسي في الوطن العربي واحداً وفي كل أجزائه إلا أن انهيار الموحدين لم يأت بحكم أجنبي فقد أعقبهم في الحكم في مراكش (بنومرين) ثم (بنو طاس) الذين واجهوا الهجمات البرتغالية التي اجتاحت معظم موانئ المغرب على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي. وفي القرن السادس عشر وحتى النصف الثاني من القرن السابع عشر حكمت مراكش الأسرة السعيدية المعروفة باسم (السعديين) من عام (١٥١٥-١٦٦٠م) عندما جاء حكم العلويين الذين مازالوا يحكمون المغرب إلى يومنا هذا باسم المملكة المغربية.

الاحتلال:

واجهت الدولة العلوية الغزو الحقيقي الأوروبي بعد أن احتل الفرنسيون الجزائر عام (١٨٣٠م). ففي سنة (١٨٦٠م) نشر في فرنسا مجلدان بعنوان (وصف المغرب و تاريخه) لمؤلفه (ليون غودار) الذي دعا فيه لاحتلال المغرب ووضع خططاً لتحقيق هذا الهدف وما كاد عام (١٩٠٠م) يحل على العالم حتى بدأت فرنسا و أسبانيا تستعدان لغزو المغرب عسكرياً.

العوامل الداخلية والخارجية للاحتلال:

إن الاستعداد العسكري لغزو المغرب قد سبقه تدخل في شؤون المغرب الداخلية بحجة حماية مصالح رعايا الدول الأوروبية، وامتيازاتهم بعد أن سيطرت أسبانيا على بعض الثغور المغربية، وأصبحت طنجة في عام (١٨٤٤م) بموجب معاهده مع بريطانيا تحت الرعاية البريطانية. وعندما تولى السلطان الحسن الأول العرش بعد وفاة والده عام (١٨٧٣م) وجد تركة ثقيلة من الامتيازات التي منحها والده وأجداده إلى الأجانب والتي تسمح بتدخل القناصل والسفراء و البريطانيين والإسبان و الفرنسيين مثل الامتيازات القضائية، وعدم خضوع رعاياهم للقوانين والأنظمة المغربية، وإعفائهم من الضرائب. وأصبح القنصل الأجنبي يتمتع بحصانه مطلقة ولا يدفعون الرسوم الجمركية (المكوس) لقاء مستورداتهم ووصل لحد تخويل



القنصل حق تشكيل قوة للشرطة وسجن خاص به لمحاسبة رعاياه وأعطت حصانة لتجار هذه الدول ولعمالئهم من المغاربة، بما فيهم الفلاحون المغاربة الذين يعملون لصالح الأجانب، مما أضعف السلطة المغربية في أرضها. ومما زاد الطين بلة أن السلطان الحسن الأول استعان بالمستشارين الأوروبيين لإصلاح أوضاع بلاده فجعل لقيادة الجيش النظامي ضابطاً بريطانياً، واستقدم بعثة عسكرية فرنسية لتدريب الجيش، وأنشأ مصنعاً للأسلحة في مدينة فاس أناط إدارته لضابط إيطالي، وانتهج سياسة المرونة تجاه المستعمرين و رضح لطلبائهم. ومن الأمثلة على ذلك السماح لفرنسا التي تمثل الجزائر بإقامة بعثة لها في مدينة وجرة على الحدود الجزائرية. وفي عام (١٨٩٣م) دفع أربعة ملايين ريال إلى إسبانيا تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بها نتيجة هجمات المقاومة المغربية للتحصينات الإسبانية في ميناءي سبتة ومليلة المغربيين اللذين تحتلّهما إسبانيا. وفي عهد السلطان الحسن الأول احتلت فرنسا تونس عام (١٨٨١م).

وعندما استلم السلطان عبد العزيز الحكم بعد وفاة والده السلطان الحسن الأول عام (١٨٩٤م) زادت الأوضاع سوءاً في المغرب، خصوصاً وأنه قد اتجه إلى الملذات رغم المهام الجسام التي تركها له والده، فأهمّل إدارة شؤون الدولة ووقع تحت سيطرة حاشيته التي لم تكن تقدم له النصح و الرشاد، وكان مستشاروه من الإنكليز وغيرهم من الأجانب، يعملون على تهئية البلاد لكي يسيطر عليها الأوروبيون، فشجعوه على الاستدانة وصرف الأموال، وكانت فرنسا أكثر الدول الأوروبية تشجيعاً للسلطان عبد العزيز على الاقتراض، والتورط بالديون الأجنبية لكي تمد نفوذها إلى المغرب. ومع أن فرنسا كانت إحدى الدول الموقعة على معاهدة مدريد عام (١٨٨٠م) و التي تنص على المحافظة على استقلال المغرب، إلا أنها عملت على تهئية الأجواء الدولية للسيطرة عليه، وقامت بما يلي:

١. عقدت معاهدة سرية مع إيطاليا عام (١٩٠١م) وافقت فيها على احتلال إيطاليا لليبيا.
٢. عقدت اتفاقاً مع إسبانيا عام (١٩٠٤م) نصّت بنوده على اقتسام المغرب فيما بينهما.



٣. عقدت معاهدة مع بريطانيا عام (١٩٠٤م) وافقت فيه على الاعتراف باحتلال بريطانيا لمصر مقابل إطلاق يد فرنسا في المغرب.

إن هذه العوامل الداخلية و الخارجية قد هيأت لاحتلال المغرب من قبل فرنسا واسبانيا، فجاء العامل المباشر عام (١٩٠٧م) لتبدأ خطوات الاحتلال عندما قتل الطبيب الفرنسي موشان في مراكش الواقعة جنوبي البلاد، فوجدت فرنسا في مصرعه سبباً للتدخل العسكري، فاجتازت الحدود المغربية من الجزائر، واحتلت مدينة وجدة. ثم تعللت بأسباب مفتعلة لاحتلال الدار البيضاء عندما حصل اعتداء على عمال أوربيين يعملون في شركة فرنسية اسبانية في المنطقة. فهاجمت مدينة الدار البيضاء بالقنابل و احتلتها، ثم احتلت بعد ذلك مدينة الرباط، وأعقبتها باحتلال العاصمة(فاس) بحجة حماية حقوقها و الديون المترتبة على المغرب. وكان السلطان عبد الحفيظ شقيق عبد العزيز قد تولى الحكم عام (١٩١٠م) بعد وفاة شقيقه.

أظهرت ألمانيا اعتراضها على الاحتلال الفرنسي للمغرب فسويت المسألة بأن منحت ألمانيا عام (١٩١١م) جزءاً من المستعمرات الفرنسية في أفريقيا مقابل سكوتها عن احتلال فرنسا للمغرب. وفي عام (١٩١٢م) استغلت فرنسا لجوء السلطان عبد الحفيظ إليها بطلب حمايتها من تمرد وقع ضده فوقعت معه معاهدة الحماية لتبدأ السيطرة التامة لفرنسا على المغرب مع بقاء حكم الأسرة العلوية فيه.

أما عن اسبانيا فقد عقدت اتفاقاً مع فرنسا مستوحى من اتفاق مدريد عام (١٩٠٤م) اعترفت فيه فرنسا لاسبانيا بحقوقها في احتلال منطقة الريف بالإضافة إلى مرفأ (أفني) على شاطئ الأطلسي. كما تمّ الاتفاق على جعل مدينة طنجة منطقة دولية.

المقاومة :

المقاومة في فاس و الصحراء و الأطلس الأوسط

ظهرت المقاومة المغربية ضد الاسبان و الفرنسيين منذ أن وطئت أقدامهم أرض المغرب الأقصى، فقد ثار المغاربة و قبائلهم في الجنوب و الشمال و كانت مدينة فاس أول المناطق التي اشتعل فيها فتيل الثورة عندما أعلنت الحماية الفرنسية



على المغرب، وزاد من ثورتهم إعلان السلطان عبد الحفيظ بأنه يرفض الاحتلال وأنه أجبر على توقيع معاهدة الحماية بعد أن اتهمه الشعب بالخيانة.

لقد طوقت القبائل الثائرة مدينة فاس و تمردت القوات المغربية في داخل المدينة على الضباط الفرنسيين الذين يقودونهم فقتلوهم و انطلقوا في شوارع المدينة ليوحدوا صفوفهم مع القبائل التي تحاصر المدينة. و توسعت الثورة في العديد من مناطق المغرب. ففي الجنوب الصحراوي أعلن (الهبة بن الشيخ ماء العينين) الثورة على المحتلين، فاضطرت الحكومة الفرنسية إلى إرسال الجنرال ليوتي ليكون مقيماً وقائداً أعلى للقوات الفرنسية في المغرب، لكنه لم يتمكن من إخماد الثورة، وذلك لأن السلطان عبد الحفيظ لم يتعاون معه و استمر بالاتصال سراً بالقبائل للتحريض على الثورة فنقله الفرنسيون بالقسر إلى الرباط. وتمكنوا من فك حصار القبائل لمدينة فاس و احتلوها في أول حزيران عام (١٩١٢م) إلا أن الثورة استمرت في سائر البلاد... ففي الجنوب (موريتانيا والصحراء) استمر ابن ماء العينين في الثورة. وعندما علم أن الفرنسيين شلوا حركة السلطان بإقامته الإجبارية أعلن (الهبة بن ماء العينين) نفسه سلطاناً على المغرب في مدينة (تنزيت) وبايعه على السلطنة بلاد السوس. وتقدمت قوات ابن ماء العينين لاحتلال مراكش لكنه توقف بعد أن استعان الجنرال ليوتي ببعض العناصر المغربية المتعاونة مع الفرنسيين، وفي (آب ١٩١٢م)، أجبر الفرنسيون السلطان عبد الحفيظ على التنازل عن العرش و غادر المغرب، ونصبوا أخاه الأصغر مولاي يوسف سلطاناً على الرغم من عدم مبايعة علماء فاس له حسب التقاليد.

لقد دخل (ابن ماء العينين) مراكش، ولكنه لم يتمكن من الصمود أمام القوات الفرنسية المتزايدة و المتعاونين معها من المغاربة بقيادة (الجلالوي) الذي لعب دوراً غير مشرف في إعانة الفرنسيين على الثوار فاحتل الفرنسيون مراكش، ثم بعد ذلك ميناء أغادير الذي كان الثوار يَتَمَوَّنُونَ منه. ومع ذلك استمرت المقاومة في الجنوب على الرغم من قيام الحرب العالمية الأولى عام (١٩١٤م)، فقد قاتلت قوات ابن ماء العينين الفرنسيين في الساقية الحمراء... ومن جانب آخر استمرت ثورة الأتلسي في الشمال.



وكان الأطلس الأوسط في الشمال قد ثار مع الجنوب ضد معاهدة الحماية الفرنسية. وقد تميزت المقاومة في الأطلس بعنفها وقوتها وضخامتها لكونها منطقة جبلية وعرة. فقد اتحدت القبائل ضد القوات الفرنسية و دارت معارك عنيفة في منطقة (تازة) مع القبائل التي ترأسها قبائل التسول و غياثة، وفي مناطق وعرة وفي الكهوف و صمدت المقاومة المغربية إلى أن استعمل الفرنسيون الطيران لأول مرة في دك معقل الثوار في قمم الجبال وكان ذلك في مايس عام (١٩١٤م) فاستولوا على وادي عنان ليربطوا شرقي المغرب بغربه بطريق أنشوؤه ليتمكنوا من السيطرة على المنطقة.

خاض الفرنسيون معارك ضارية ضد المقاومة المغربية العنيفة في مناطق الأطلس الأوسط، و منها معاركهم مع قبائل (زيان). وقد تكبدوا خسائر كبيرة في معاركهم و حققت المقاومة انتصارات مهمة ضدهم، وقد استمرت المعارك منذ عام (١٩١٣م) و خلال الحرب العالمية الأولى، ولم يتمكن الفرنسيون من السيطرة على المناطق المهمة في الأطلس الأوسط إلا بعد عام (١٩٢٣م) حينما سيطروا على وادي أم الربيع و على طريق فاس - خنيفرة - مراكش، أي: المدن والعواصم، والموانئ، والسهول. وبقيت الجبال بقممها و المناطق الصحراوية تقاوم الاحتلال.

المقاومة في جبال الريف بقيادة عبد الكريم الخطابي:

تقع منطقة جبال الريف في شمال غربي المغرب، حيث تتحدر الجبال انحداراً شديداً باتجاه البحر المتوسط حتى تلامسه، أما من جهة الغرب فتتحدر انحداراً محدوداً إلى جنوبي طنجة باتجاه المحيط الأطلسي. ويمتد القسم الشمالي من منطقة جبال الريف من مدينة مليلة إلى مدينة سبتة، بينما يمتد الجزء الغربي من مدينة طنجة إلى مدينة العرائش. وقد أصبحت هذه المنطقة تحت الاحتلال الإسباني وفقاً للاتفاقات الثنائية التي عقدها المستعمرون الأوربيون فيما بينهم منذ عام (١٩٠٢م) وحتى عام (١٩٠٤م)، والتي تدعمت بمعاهدة الحماية عام (١٩١٣م) ليصبح ٢١/١ من أرض المغرب تحت السيطرة الإسبانية.

خاضت منطقة جبال الريف مقاومة عنيفة ضد الإسبان منذ عام (١٩٠٩م) بقيادة (محمد أمزيان) و ذلك قبل ظهور محمد عبد الكريم الخطابي، و خلال سنتين



كَبَدَتْ قبائل جبال الريف الإسبان حوالي عشرة آلاف قتيل من بينهم ضباط كبار. ثم استؤنفت المعارك سنة (١٩١٣م) عندما وقفت المقاومة بوجه القوات الإسبانية التي أرادت احتلال مدينة شفشاون، فكبدتهم خسائر فادحة، و طاردتهم إلى مدينة تطوان حيث تمكنت المقاومة من محاصرة القوات الإسبانية فيها. ولم تتوقف المقاومة إلا بعد أن تمّ تعيين أحد حلفاء الإسبان من المغاربة المعروف باسم (الريسولي) حاكماً على المنطقة.

بدأت المقاومة المسلحة من جديد بقيادة محمد عبد الكريم الخطابي، الذي كان والده قد هبّاه للقيادة بأن أرسله إلى جامعة فاس لدراسته العلوم العربية والدينية، ثم عمل قاضياً للقضاة في مدينة مليلة وعمل في تحرير جريدة (تلغراف الريف). وعندما وقع الخلاف بين والده و السلطات الإسبانية بسبب رفضه الحماية الإسبانية على منطقة جبال الريف، اعتقل الإسبان القاضي (محمد) وما إن أُطلق سراحه بعد حوالي سنة، حتى التحق بوالده الذي كان يستعد للمقاومة فحشد رجال القبائل حوله وبدأ مقاومته في شهر آب عام (١٩٢٠م) لكن المنية عاجلته فاستلم القيادة ولده محمد عبد الكريم الخطابي، وبدأت المقاومة ضد الإسبان و التي تتوجت بنصر كبير في معركة (أنوال) قرب مدينة مليلة حيث قضى الخطابي على الجيش الإسباني بأكمله مما سبب انقلاباً في إسبانيا، واستمر يقاوم إلى أن تم إجلاء الإسبان من منطقة الريف عام (١٩٢٤م) وطاردهم حتى تطوان وتقدم إلى المنطقة الواقعة تحت الحماية الفرنسية.

لقد رفض الخطابي العروض الإسبانية بإعطاء منطقة الريف استقلالاً ذاتياً مع بقاء الحماية، ولكن الخطابي رفض واستمر في المقاومة. وما إن حلّ عام (١٩٢٥م) حتى أصبح الأمير الخطابي رئيساً لحكومة جبال الريف وما حولها وبدأت الحكومة الإسبانية تفاوضه، لكنها كانت تريد كسب الوقت لتوحيد جهودها مع القوات الفرنسية، و استغلال الانقسامات التي وقعت بين القبائل. وقد تم الاتفاق للقيام بعمل سياسي وعسكري مشترك ضد المقاومة التي يقودها الخطابي في جبال الريف، واستمرت المقاومة إلى أن تمكنت القوات الفرنسية و الإسبانية من التغلب عليها و استسلم الخطابي لهم في ٢٦ مايس عام (١٩٢٦م) حيث نفى



إلى إحدى جزر المحيط الهندي، وبقي في منفاه إلى عام (١٩٤٧م) حين التجأ إلى مصر حتى وافته المنية عام (١٩٦٣م).

أستمر العمل السياسي في المغرب من أجل الاستقلال. وتشكل عام (١٩٤٣م) حزب الاستقلال لتصبح القوة التي واجهت الاستعمار الفرنسي بصلابته. وقد وَجَدَ الحزب و الحركة الوطنية دعماً كبيراً من السلطان (محمد الخامس) ابن السلطان يوسف الذي عزلته السلطات الفرنسية، ونفته خارج المغرب عام (١٩٥٣م) لكن الحركة الوطنية أجبرت الفرنسيين على إعادة (محمد الخامس) و إعلان استقلال المغرب عام (١٩٥٦م) بإنهاء الحماية الفرنسية ومن ثم الإسبانية.